فيهم الشّريف تركوه وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ وإنّي والّذي نفسي بيده لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها . ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها . قالت عائشة فحسنت توبتها بعد وتزوّجت وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[1] .

كما أنّا نستطيع أن نفهم التّوبة بأنّها دون قطع تمشّياً مع قوله عزّ من قائل[2] : ﴿ قل يا عبادي الّذين اسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الّذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرّحيم ﴾ .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

في أسلوب الاستفهام تقرّر الآية الكريمة أنّ لله ملك السّماوات والأرض : ﴿ ألم تعلم أنّ لله ملك السّماوات والأرض ﴾ فكلّ هذا الوجود بسمائه وأرضه وما فيهما ملكٌ لله تعالى يفعل فيه ما يريد لايُسْأل عمّا يفعل وهم يسألون : وبالّنظر إلى بقيّة الآية الكريمة في ضوء الآيتين الكريمتين السّابقتين نستطيع أن نتبيّن أنّ القول : ﴿ يعذّب من يشاء ﴾ يتمشّى مع أولى الآيتين الكريمتين الّتي بيّنت حكم الله تعالى في السّارق والسّارقة وقرّرت أنّ الله سبحانه وتعالى عزيزٌ حكيم . عزيزٌ في ملكه حكيمٌ في صنعه . ونستطيع أن نتبيّن أنّ القول : ﴿ ويغفر لمن يشاء ﴾ يتمشّى مع الآية الكريمة التّالية الّتي تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى الغفور الرّحيم يتوب على من تاب ، إنّه جلّ وعلا يعذّب من يشاء تعذيبه بفضحه على رئوس الأشهاد وقطع يده ، وإنّه جلّ وعلا يغفر لمن يشاء فيستر عليه ويقبل توبته ويوفّقه للعمل الصّالح .

وبما أنّ كلّ المعاني السّابقة تدلّ على قدرة الله تعالى الفعّال لما يريد لذلك ختمت

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٥٧ .

(٢) سورة الزّمر ٥٣ .

هذه الآية الكريمة الأخيرة في القسم بالقول : ﴿ والله على كل شيءٍ قدير ﴾ .

إنّ كلاً من التّذييلات الثّلاثة غايةٌ في القيام بدورها خير قيام

: ﴿ والله عزيزٌ حكيم ﴾ .

: ﴿ إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ .

: ﴿ والله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾

من المنافقين واليهود والنصارى

الآيات ٤١ - ٤٧

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ
لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ
ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ
يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي
ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

سبب النزول :

نزلت الآية الكريمة في اليهوديّين اللّذين زنيا وكانوا قد بدّلوا كتاب الله الّذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم فحرّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة[1] بحبلٍ من ليفٍ مطليٍّ بقار[2] والتّحميم[3] وهو تسويد الوجه[4] بالحُمم كصُرَد وهو الفحم واحدته بهاء . وحمّم سخّم الوجه به[5] والإركاب على حمارين مقلوبين[6] بمعنى أن يحملا على حمارين يحوّل وجوههما من قبل دبر الحمار[7] فلمّا وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم

---

١) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨ .
٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٠ .
٣) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨ .
٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٠ .
٥) القاموس المحيط « حمم » .
٦) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨ .
٧) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٠ .

تعالوا حتىّ نتحاكم إليه فإن حكم بالجلد والتّحميم فخذوا عنه واجعلوه حجّةً بينكم وبين الله ويكون نبيّ من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرّجم فلا تتبعوه في ذلك . وقد وردت الأحاديث بذلك فقال مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنّ رجلاً منهم وامرأةً زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ ما تجدون في التّوراة في شأن الرّجم ؟ فقالوا نفضحهم ويجلدون . قال عبدالله بن سلام كذبتم إنّ فيها الرّجم فأتوا بالتّوارة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرّجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبدالله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرّجم فقالوا صدق يا محمّد فيها آية الرّجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرّجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة أخرجاه . وهذا لفظ البخاريّ[1] .

ومن الّذين هادوا : هادوا بمعنى تابوا ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف[2] : ﴿ إنّا هدنا إليك ﴾ بمعنى إنّا تبنا إليك[3] .

سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك : هم يهود خيبر زنى فيهم محصنان فكرهوا رجمهما فبعثوا قريظة ليسألو النّبيّ ﷺ عن حكمهما[4] .

يحرّفون الكلم من بعد مواضعه : يحرّفون الكلم الّذي في التّوراة كآية الرّجم[5] ويغيّرون حكم الله تعالى[6] ويتأوّلون كلامه على غير تأويله ويبدّلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[7] من بعد مواضعه ، من بعد وضع الله ذلك مواضعه[8]

ومن يرد الله فتنته : ومن يرد الله ضلالته عن سبيل الهدى[9] وقصد السّبيل[10] .

أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم : من دنس الكفر ووسخ الشّرك بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان فيتوبوا[11] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ بالقول : ﴿ يا أيّها الرّسول ﴾ وكذلك تخاطبه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨ .
(٢) الآية ١٥٦ .
(٣) الجلالين .
(٤) الجلالين .
(٥) الجلالين .
(٦) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٣ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٣ .
(٩) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٤ .
(١٠) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٤ .
(١١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٤ .

الآية الكريمة السّابعة والسّتون من سورة المائدة الكريمة : ﴿ يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ﴾ وليس لهذين الموضعين ثالثٌ في القرآن الكريم . والمعروف أنّ نعمة الرّسالة أكبر نعمةٍ يمتّن الله تعالى بها على عبدٍ من عباده جلّ وعلا ، والمعروف كذلك أنّ القرآن الكريم لايخاطب المصطفى ﷺ باسمه الكريم إنّما يخاطبه بكونه الرّسول وبكونه النّبي أمّا سائر النّبيّين فيخاطبون بأسمائهم عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه .

والآية الكريمة في ندائها المصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين تنهاه عن أن يحزن لمسارعة المنافقين واليهود في الكفر . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسببٍ من العديد من الآيات الكريمات الّتي تنهاه ﷺ عن أن يهلك نفسه حزناً لإعراض الّذين يدعوهم إلى الله تعالى عن صراط العزيز الحميد . إنّ كلاً من المنافقين واليهود يسارعون في الكفر بعد أن تظاهروا بالإيمان . والآية الكريمة تصف المنافقين بأهمّ صفاتهم الداخليّة الحقيقيّة وهي أنّهم آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . إنّ البشر لايستطيعون كشف هذه الحقيقة لدى المنافقين ، وإنّ ربّ البشر ربّ العالمين هو الّذي يقول ذلك . ويشترك اليهود مع إخوانهم المنافقين في هذه الصفّة . والمعروف أنّ القرآن الكريم في العديد من المواضع يجمع بين المنافقين وبين اليهود جميعاً باعتبار المنافقين إخوان اليهود في الصّفات وفي العداوة للإسلام والمسلمين .

ويزيد اليهود عن المنافقين سوءاً بكونهم يسمعون للكذب الّذي يختلقه أحبارهم بل إنّهم سمّاعون للكذب ، هكذا في صيغة المبالغة ، دليلاً على استمرار سماعهم لعلمائهم الكذبة واستمرائهم لكذب الكفرة الفجرة . وهم وراء ذلك سمّاعون لقومٍ آخرين من اليهود لم يأتوا المصطفى ﷺ ولم يحضروا مجلسه . وهؤلاء الّذين لم يأتوا مجلس المصطفى ﷺ ولم يسمعوا منه يحرّفون كلام الله تعالى في التّوراة كالأحكام ونعوت المصطفى ﷺ من بعد مواضعه الّتي في وضعه الله تعالى فيها ، ويقولون لمبعوثيهم من قريظة الّذين بعث بهم أهل خيبر المحرفون لكلام الله تعالى عن مواضعه المأوّلونه على غير وجهه ، الّذين بعث بهم أهل خيبر إلى المصطفى ﷺ : إن أوتيتم من محمّد هذا الحكم الّذي ابتدعناه في حقّ الزّاني المحصن من الجلد مائة جلدة وتسويد الوجه والإركاب على حمارين مع تحويل وجهي الزّانيين من قبل دُبُر الحمار ، فخذوا هذا الحكم واقبلوه واعتبروا قول محمّدٍ حجّةً لكم عند الله تعالى ، أمّا إن حكم بغير ذلك أي برجم المحصن كما في التّوراة وكما في الإسلام فاحذروا هذا الحكم أن تقبلوه . والمعروف أنّ ربّ العزّة فضح اليهود على رءوس الأشهاد وحكم المصطفى

ﷺ بحكم الله تعالى في الزّاني المحصن في اليهوديّة وفي الإسلام فَرُجِم الزّانيان المحصنان اليهوديّان .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يرد الله سبحانه وتعالى فتنته وضلاله عن سواء السّبيل فلن يملك له المصطفى ﷺ فضلاً عن غيره ﷺ من الله شيئاً .

كما تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين يسارعون في الكفر والّذين لايحكمون بما أنزل الله تعالى لم يرد الله سبحانه وتعالى أن يطهّر قلوبهم ويزكّي نفوسهم من درن الكفر ووسخ الشّرك . إن أولئك لهم في الدّنيا خزي الهزيمة ودفع الجزية ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم في نار جهنّم الّتي وقودها النّاس والحجارة والّتي أعدّها الله سبحانه وتعالى للكافرين .

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

سمّاعون للكذب : هؤلاء اليهود سمّاعون لقيل الباطل والكذب من قيل بعضهم لبعضٍ محمّدٌ كاذب ليس بنبيّ وقيل بعضهم إنّ حكم الزّاني المحصن في التّوراة الجلد والتّحميم وغير ذلك من الأباطيل والإفك[1] .

أكّالون للسُّحت : بضمّ الحاء وسكونها أي الحرام كالرّشا[2] وهو الرّشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد[3] وأصل السّحت كَلَبُ الجوع يقال منه : فلانٌ مسحوت المعدة إذا كان أكولاً لايُلْفَى أبداً إلاّ جائعاً . وإنّما قيل للرّشوة السّحت تشبيهاً بذلك ، كأنّ بالمسترشي من الشّره إلى أخذ ما يعطاه من ذلك مثل الّذي بالمسحوت المعدة من الشّره إلى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٤ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٦٠ .

الطّعام . يقال منه : سحته وأسحته لغتان محلّيّتان عن العرب[1] .

بالقسط : بالحقّ والعدل[2] .

نصّت الآية الكريمة السّابقة بقولها عن اليهود : ﴿ سماعون للكذب ﴾ نصّت على سماع اليهود للكذب سماع قبول واستمرائهم ذلك الكذب . وهذه الآية الكريمة تؤكد المعنى السّابق وتبدأ بذات القول : ﴿ سمّاعون للكذب ﴾ إنّ اليهود بنصّ الآية الكريمة سمّاعون للكذب سماع قبول ومن ذلك العبث بأحكام الله تعالى كالزّعم بأنّ الجلد مائة جلدة والتّحميم هو حكم التّوراة في الزّاني المحصن بينما الحكم في التّوراة كالحكم في الإسلام الرّجم بالحجارة . وإنّ اليهود بنصّ الآية الكريمة أكّالون للسّحت ، أي للحرام وبخاصّةٍ الرّشا في حق الأحبار وهم علماء الدّين الّذين يشترون بآيات الله تعالى ثمناً قليلاً وفي حقّ العامّة الّذين يستحلّون أكل أموال النّاس بالباطل . وقد جاء في اشتراء أهل الكتاب بآيات الله تعالى ثمناً قليلاً قوله عزّ من قائل[3] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ .

إنّ هؤلاء اليهود السّمّاعين للكذب سماع قبول الأكّالين للمال الحرام والّذين كانوا معاصرين للمصطفى ﷺ ربّما جاءوا إلى المصطفى ﷺ كي يحكم بينهم ، ليس من أجل البحث عن حكم الله تعالى والتّحرّي في البحث والرّضا به ولكن من أجل البحث عن الدّليل على الحكم الّذي ابتدعوه مخالفين حكم الله تعالى ظنّاً منهم أنّهم بزعمهم مثلاً أنّ الحكم الّذي ابتدعوه في حقّ الزّاني المحصن زاعمين أنّه حكم الله تعالى في التّوراة سيقبله المصطفى ﷺ وسيقرّه ونسوا أنّ الله سبحانه وتعالى مؤيّدٌ رسوله ﷺ .

وها هي ذي الآية الكريمة تخيّر المصطفى ﷺ إن جاءه اليهود بين أن يحكم بينهم بحكم الله تعالى وأن يعرض عنهم ، كما تبيّن له ﷺ بأنّه إن أعرض عن اليهود فلن يضرّوه شيئاً . كما تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ إن حكم إن يحكم بين اليهود بالقسط ، بالحقّ والعدل . كما تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ المقسطين العادلين في الأحكام .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٦٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٧ .

الآية الكريمة منسوخة .

قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسّدّيّ وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والحسن وغير واحد : هي منسوخة بقوله : وأن احكم بينهم بما أنزل الله[1] .

عن السّدّيّ قال : لمّا نزلت : فاحكم بينهم أو أعرض عنهم كان النّبيّ ﷺ إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ثمّ نسخها فقال : فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتّبع أهواءهم . وكان مجبوراً على أن يحكم بينهم[2] .

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ
وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

الآية الكريمة تقريعٌ لليهود وتبكيتٌ لهم مع أنّ الخطاب متّجهٌ إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . والمعنى وكيف يحكّمك اليهود في الزّاني المحصن وهم الّذين لايتّبعونك ولايصدّقون أنّك رسول ربّ العالمين ؟ إنّهم لم يريدو الحقّ بل أرادوا الحكم الأهون لأنّهم لو أرادوا الحقّ لوجدوا الحكم الّذي حكمت به في التّوراة عندهم الّتي فيها حكم الله تعالى . إنّهم وقد تبيّنوا موافقة حكمك لما في التّوراة يعرضون عن ذلك الحكم لأنّهم ليسوا بالمؤمنين وإلاّ لرضوا بحكم الله تعالى في التّوراة وعلى لسانك أيّها النّبيّ الكريم ولآمنوا بك واتّبعوك .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٦٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١٥٩ .

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ
وَٱخْشَوْنِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدىً : من الضّلالة[١]

ونور : بيانٌ للأحكام[٢] وجلاء ما أظلم عليهم وضياء ما التبس من الحكم[٣] .

يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا : يحكم بها مسلمو الأنبياء لليهود[٤] .

والرّبّانيّون : جمع ربّانيّ وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة النّاس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم[٥] عن مجاهد : الرّبّانيون العلماء الفقهاء وهم فوق الأحبار[٦] .

والأحبار : هم العلماء[٧] .

بما استحفظوا من كتاب الله : بما استودعوا علمه من كتاب الله الّذي هو التّوراة .

والباء في قوله : بما استحفظوا من ، صلة الأحبار[٨] .

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون : هم الّذين ستروا الحقّ الّذي كان عليهم كشفه وتبيينه وغطّوه عن النّاس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحتٍ أخذوه منهم

---

(١) الجلالين .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١٦١ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١٦٢ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٦ /١٦١ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٦ /١٦٢ .

(٧) تفسير الطّبريّ ٦ /١٦١ ، ١٦٢ .

(٨) تفسير الطّبريّ ٦ /١٦٢ .

عليه[1] عن ابن عبّاس قال هي به كفر . قال ابن طاوس وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله . وعن عطاء أنّه قال : كفرٌ دون كفر ، وظلمٌ دون ظلم ، وفسقٌ دون فسق[2] .

يبيّن ربّ العزّة في الآية الكريمة أنّه جلّ وعلا أنزل التّوراة على موسى عليه السّلام فيها هدىً من الضّلالة ونورٌ يستضاء به في الأحكام وفي سائر الأمور ويعرف به الصّراط المستقيم ويؤمن به من الزّلل . وتنصّ الآية الكريمة على أحكام التّوراة تمشّياً مع سياق الآيات الكريمات فتقرّر أنّ التّوراة يحكم بها نبيو بني إسرائيل الّذين أسلموا لله رب العالمين ابتداءً بموسى عليه السّلام ، يحكم بها النّبيّون للّذين هادوا ، أي اليهود الّذين سمّوا بذلك بسبب ما جاء على لسانهم في سورة الأعراف[3] : ﴿ إنّا هدنا إليك ﴾ بمعنى إنّا تبنا إليك ويحكم بها الرّبّانيّون وهم العلماء الحلماء الحكماء الّذين يربّون النّاس بالسّياسة الحكيمة ويدبّرون شئونهم بالقيادة الرّشيدة ، ويقومون بمصالحهم بالفقه في الأمور والشئون ، ويحكم بها كذلك الأحبار ، وهم علماء بني إسرائيل .

ومع أنّ القول : ﴿ بمااستحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ يشمل النّبيّين والرّبّانيّين والأحبار ، إلاّ أنّ الكلام يتّجه إلى الأحبار في المقام الأوّل لتأخّرهم في الذّكر ، ولأن طلب حفظ التّوراة اتّجه إليهم في المقام الأوّل ، ولأنّ هذه هي وظيفتهم وذلك هو عملهم أن يستودعوا علم التّوراة ويترجموا تعاليمها إلى عمل وفي مقدّمة ذلك كلّه الأحكام ، ولأنّ هؤلاء الأحبار كانوا على الكتاب شهداء جمع شهيد ، هكذا في صيغة المبالغة فعيل ، بمعنى الأمين في شهادته المحيط بها . فهؤلاء الأحبار كانوا شهداء بأنّ التّوراة كتاب الله تعالى وعليهم أن يتمسّكوا بتعاليمها ويترجموها إلى عمل ومن ذلك الأحكام ومن بينها حكم الزاني المحصن ومن ذلك نعت محمّد بن عبدالله ﷺ .

قارن بين طلب الله سبحانه وتعالى من الأحبار أن يحفظوا التّوراة ، وبين حفظ الله تعالى للقرآن الكريم . قال تعالى[4] : ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٦٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٦١ .

(٣) الآية ١٥٦ .

(٤) سورة الحجر ٩ .

وتنهي الآية الكريمة اليهود بعامّة الأحبار بخاصّة عن أن يخشوا النّاس وتأمرهم بأن يخشوا الله تعالى وحده لاشريك له وبألاّ يخافوا فيه جلّ وعلا لومة لائم ، وتنهاهم عن أن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً . وكأنّ الآية الكريمة تشير إلى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾

وهذه الآية الكريمة الّتي تدور على الأحكام يجيء في تذييلها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ إنّ من لم يحكم بما أنزل الله تعالى فأولئك الّذين ستروا الحقّ وغطّوه عن النّاس وأظهروا لهم غيره وبيّنوا لهم سواه .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ
بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ
قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن
لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى كتب على بني إسرائيل في التّوراة وفرض عليهم فيها أنّ النّفس تقتل بالنّفس والعين تفقأ بالعين والأنف يجدع بالأنف والأذن تقطع بالأذن والسّنّ تقلع بالسّن والجروح يقتصّ فيها إذا أمكن كاليد والرّجل ونحو ذلك من كفٍّ وقدم . ولاقصاص في كلّ مخوفٍ ولا فيما لايوصل إلى القصاص فيه إلاّ بأن يخطىء الضّارب أو يزيد أو ينقص كالفخذ وشبهها لأنّه مخوفُ خطر[2] .

لقد سوّى الله تعالى بين النّفس والنّفس في التّوراة فخالفوا ذلك ، فضلّوا فكانت دية النّضيري أكثر وكان النّضيري لايُقْتل بالقرظيّ ويقتل به القُرظيّ . وهذا أيضاً ممّا

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢ /٦٢ ، ٦٣ .

وبخّت به اليهود وقرّعوا لأنّهم خالفوا حكم الله عمداً كما خالفوا حكم التّوراة المنصوص عندهم في رجم الزّاني المحصن ولهذا قال هناك : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون لأنّهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً وقال ههنا : فأولئك هم الظالمون ، لأنّهم لم ينصفوا المظلوم من الظّالم في الأمر الّذي أمر الله بالعدل والتّسوية بين الجميع فيه[1] .

وكان شرعهم القصاص أو العفو وما كان فيهم الدّية[2] .

عن ابن عبّاس قال : تقتل النّفس بالنّفس وتفقأ العين بالعين وتقطع الأنف بالأنف وتنزع السّنّ بالسّنّ وتقتصّ الجراح بالجراح فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النّفس وما دون النّفس ، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النّفس وما دون النّفس[3] .

وعلماء الأمّة قالوا : العين اليُمْنى هي المأخوذة باليمنى عند وجودها والمراد بقوله : والعين بالعين استيفاء ما يماثله من الجاني فلايجوز له أن يتعدّى إلى غيره كما لايتعدّى من الرّجل إلى اليد في الأحوال كلّها[4] وأجمع العلماء على أنّ العينين إذا أصيبتا خطأً ففيهما الدّية وفي العين الواحدة نصف الدّية[5] .

وفي الأنف إذا استؤصل قطعه الدّية[6] .

وفي إبطال السّمع الدّية وفي إبطاله من إحداهما نصف الدّية ولو لم يكن السّمع إلاّ بها بخلاف العين العوراء فيها الدّية كاملة[7] .

والسّنّ تقلع بالسّنّ وثبت عن رسول الله ﷺ أنّه أقاد من سنّ وقال : كتاب الله القصاص . وجاء الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال في السّنّ خمْسٌ من الإبل[8] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ /٦١ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٢١٨٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٦٦ .

(٤) تفسير القرطبيّ ٢١٩٠ .

(٥) تفسير القرطبيّ ٢١٩٠ .

(٦) تفسير القرطبي ٢١٩٢ .

(٧) تفسير القرطبي ٢١٩٣ .

(٨) تفسير القرطبي ٢١٩٤ .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ من تصدّق بالقصاص فعفا فهو كفّارةٌ له أي لذلك المتصدّق . كما تقرّر أنّ من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون . وإذا كانت الآية الكريمة في بني إسرائيل أساساً فإنّها تتّجه إلى المسلمين فمن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون كما أنّهم هم الكافرون وهم الفاسقون .

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

وقفّينا على آثارهم : وأتبعنا على آثار أنبياء بني إسرائيل[١]

مصدّقاً لما بين يديه من التّوراة : مؤمناً بها حاكماً بما فيها[٢] .

فيه هدىً : إلى الحقّ[٣] .

ونور : وضياءٌ من عمى الجهالة[٤] يستضاء به في إزالة الشّبهات وحلّ المشكلات[٥] .

ومصدّقاً لما بين يديه من التّوراة : أي متّبعاً لها غير مخالفٍ لما فيها إلاّ في القليل ممّا بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنّه قال لبني إسرائيل : ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم . ولهذا كان المشهور من قول العلماء أنّ الإنجيل نسخ بعض أحكام التّوراة[٦] .

وموعظةً : وزجراً لهم عمّا يكرهه الله إلى ما يحبّه من الأعمال وتنبيهاً لهم عليه[٧] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٦٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٦٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٦٤ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١٧١ .

(٥) تفسي ابن كثير ٢ /٦٤ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢ /٦٤ .

(٧) تفسير الطّبريّ ٦ /١٧١ .

عيسى ابن مريم عليه السّلام آخر أنبياء بني إسرائيل . وبعد أن تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات عن التّوراة وعن النّبيّين الّذين يحكمون بها تحدّثت هذه الآية الكريمة الّتي نحن بصددها عن عيسى عليه السّلام فقرّرت أنّ الله سبحانه وتعالى أتبع على آثار أنبياء بني إسرائيل آخرهم ، عيسى عليه السّلام مصدّقاً لما بين يديه من التّوراة الّتي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام ، مؤمناً بها ، متّبعاً تعاليمها ، حاكماً بها . وآتى الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السّلام الإنجيل فيه هدىً من الضّلالة ونورٌ يستبين به الحقّ وتعرف به الأحكام ومصدّقاً لما بين يديه من التّوراة باعتبارهما كتابين موحىً بهما من الله تعالى ، وكتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضاً ، كما أنّ أنبياء الله تعالى يصدّق بعضهم بعضاً ويصدّقون الكتب السّماويّة السّابقة .

وتؤكّد الآية الكريمة أنّ الإنجيل هدىً لبنى إسرائيل من الضّلالة خاصّةً وأنّ عيسى عليه السّلام قد جاء على لسانه في خطابه لبني إسرائيل قوله تعالى[1] : ﴿ ومصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم ﴾ ولهذا كان المشهور بين العلماء أنّ الإنجيل نسخ بعض أحكام التّوراة . والإنجيل وراء ذلك موعظةٌ وذكرى للمتّقين الّذين خافوا الله سبحانه واتّقوا غضب الله تعالى وعذابه وناره باجتناب النّواهي وفعل الطّاعات .

وَلْيَحْكُمْ
أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أمر أهل الإنجيل وهم النّصارى أتباع عيسى عليه السّلام أن يحكموا بما أنزل الله سبحانه وتعالى فيه من الأحكام . والمعروف أنّ الاستحفاظ الّذي طلبه الله سبحانه وتعالى بشأن التّوراة ولم يفعلوه ينسحب على الرّهبان بشأن الإنجيل إذ المعروف أنّ كلاً من هذين الكتابين السّماويّين قد تعرّض للتّحريف والتّأويل ، التّغيير والتّبديل .

---

(١) سورة آل عمران ٥٠ .

وعلى غرار القولين السّابقين في حقّ أهل التّوراة : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون ﴾ يجيء القول في حقّ أهل الإنجيل : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ إنّ أهل الإنجيل الّذين لايحكمون بما أنزل الله تعالى في الإنجيل أولئك هم الفاسقون الخارجون عن الصّراط المستقيم .

ومن المعروف أنّ الأقوال الثّلاثة تنسحب على المسلمين حينما لايحكمون بالقرآن الكريم وبسنّة المصطفى ﷺ . إنّهم حينما لا يحكمون بما أنزل الله تعالى يكونون ــ لاسمح الله ــ الكافرين والظّالمين والفاسقين . ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

القرآن مهيمن على الكتاب قبله

﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ؟

الآيات ٤٨ - ٥٠

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا
عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ
ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

وأنزلنا إليك الكتاب : وأنزلنا إليك يامحمّد القرآن[1] .

بالحقّ : بالصّدق الّذي لاريب فيه أنّه من عند الله[2] .

مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب : أي من الكتب المتقدّمة المتضمّنة ذكره ومدحه وأنّه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمّد ﷺ[3] .

ومهيمناً عليه : شهيداً على الكتب قبله أنّها حقٌّ من عند الله أميناً عليها حافظاً لها . وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب يقال إذا رقب الرّجل الشّيء وحفظه وشهده قد هيمن فلانٌ عليه فهو يهيمن هيمنةً وهو عليه مهيمن[4] .

لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا : الشِّرعة هي الشّريعة بعينها تجمع الشّرعة شراعاً والشّريعة شرائع . وكلّ ما شرعت فيه من شيءٍ فهو شريعة ومن ذلك قيل لشريعة الماء شريعة لأنّه يشرع منها إلى الماء ومنه سمّيت شرائع الإسلام شرائع لشروع أهله فيه . وأمّا المنهاج فإنّ أصله الطّريق البيّن الواضح . يقال منه هو طريقٌ نهج ومنهجٌ بيّن . ثمّ يستعمل

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٧٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٦٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٦٥ .

(٤) تفسير ابن الطّبريّ ٦ /١٧٢ .

في كلّ شيءٍ كان بيّناً واضحاً سهلاً . فمعنى الكلام لكلّ قومٍ منكم جعلنا طريقاً إلى الحقّ يؤمّه وسبيلاً واضحاً يعمل به[1] عن ابن عبّاس : شرعة : سبيلا . ومنهاجاً سنّة[2] الشّرعة هي ما يبتدأ فيه إلى الشّيء ومنه يقال : شرع في كذا أي ابتدأ فيه ، وكذا الشّريعة وهي ما يشرع فيها إلى الماء . أمّا المنهاج فهو الطّريق الواضح السّهل[3] .

ولكن ليبلوكم فيما آتاكم : ولكن ليختبركم فيعرف المطيع منكم من العاصي والعامل بما أمره في الكتاب الّذي أنزله إلى نبيّه ﷺ من المخالف . والابتلاء هو الاختبار[4] .

فاستبقوا الخيرات : فبادروا أيّها النّاس إلى الصّالحات من الأعمال والقرب إلى ربّكم بإدمان العمل بما في كتابكم الّذي أنزله إلى نبيّكم[5] .

بعد أن تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات عن التّوراة والإنجيل تحوّل السّياق إلى الحديث عن القرآن الكريم الكتاب العزيز الّذي تكفّل الله تعالى بحفظه والّذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ، وباعتبار هذا الكتاب العزيز آخر الكتب السّماويّة وأشرفها .

والآية الكريمة تبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل إلى محمّد بن عبدالله ﷺ الكتاب العزيز بالحقّ ، فهو بالحقّ أنزله الله تعالى وبالحقّ نزل . وهذا القرآن الكريم أنزله الله تعالى مصدّقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ومهيمناً عليها شهيداً أنّها حقٌّ من عند الله تعالى حافظاً لها أميناً عليها . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يحكم بين النّاس جميعاً ، مسلمين وغير مسلمين ، بما أنزل الله تعالى عليه وأوحى إليه من قرآنٍ كريمٍ وسنّةٍ مطهّرة . وتنهى الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يتّبع أهواء اليهود ومن لفّ لفهم من إخوانهم المنافقين والكافرين عمّا جاءه عليه الصّلاة والسّلام من الحقّ ووصل إليه من وحي . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لكلّ أمّة من الأمم سبيلاً إلى الحقّ تؤمّه وطريقاً واضحاً بيّناً تسلكه في سبيل دين التّوحيد الواحد الّذي بعث الله سبحانه وتعالى به كلّ الرّسل .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٦٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٦٦ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١٧٦ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٦ /١٧٦ .

هكذا شاءت إرادة الله تعالى أن تكون الغاية وهي توحيد الله تعالى واحدة ، وأن تكون السّبل الموصلة إلى تلك الغاية متعدّدة . وهذا المعنى عمّقه قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ والمعنى : ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلكم أمّةً واحدةً أتباع دينٍ واحدٍ لفعل ولكنّه جلّ وعلا أراد اختباركم فيما آتاكم وامتحانكم فيما بعث به من رسل وأوحى من كتب ليعلم من أطاعه ومن عصاه إلى أن بعث جلّ وعلا خاتم النّبيّين بالحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السّلام ، بدين الإسلام الّذي لايقبل الله تعالى سواه والنّاسخ لسائر الأديان .

ثبت في صحيح البخاريّ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء إخوة لعَلاّت[1] ديننا واحد . يعني بذلك التّوحيد الّذي بعث الله به كلّ رسولٍ أرسله وضمّنه كلّ كتابٍ أنزله ، وأمّا الشّرائع فمختلفة في الأوامر والنّواهي[2] إنّ المطلوب من عباد الله تعالى استباق الخيرات بفعل الصّالحات الّتي أمر بها الإسلام قرآنا كريماً وسنّة مطهّرة .

وتقرّر الآية الكريمة في جزئيّتها الأخيرة أنّ مرجع الخلائق جميعاً إلى الله تعالى يوم القيامة فينبّئهم في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ما كانوا يختلفون فيه في هذه الحياة الدّنيا . إنّ الصّراط المستقيم يتمثّل في اتّباع القرآن الكريم المهيمن على الكتب السّابقة وفي اتّباع الرّسول العظيم خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ
بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾

الآية الكريمة تعمّق معاني الآية الكريمة السّابقة وتؤكّدها وتضيف الجديد من المعاني . إنّ القول : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ معمّقٌ للقول في الآية الكريمة

---

(١) الإخوة لعَلاّت هم الإخوة من أبٍ واحدٍ وأمّهاتٍ شتّى .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٦٦ .

السّابقة : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ وقد عرفنا أنّ القول : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ ناسخٌ للقول في الآية الكريمة الثّانية والأربعين : ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ والمراد اليهود بخاصّة وهذا القول هنا ناسخٌ أيضاً .

وإنّ القول : ﴿ ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ معمّقٌ للقول في الآية الكريمة السّابقة : ﴿ ولاتتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ ﴾ ويضيف الجديد إذ أنّه يحذّر المصطفى ﷺ أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله تعالى إليه وأن يضلّوه عن بعض ما أوحى الله تعالى إليه من قرآنٍ مجيد وسنّةٍ مطهّرةٍ . والمعروف أنّ اليهود كانوا حريصين على ذلك حرص إخوانهم المنافقين والكافرين .

والقول : ﴿ فإن تولّوا فاعلم أنّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ معناه فإن أعرض اليهود ومن لفّ لفّهم من المنافقين إخوانهم عن حكم الله تعالى فاعلم أيّها الرّسول الكريم أنّما يريد الله سبحانه وتعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ويعاقبهم ببعض الآثام الّتي ارتكبوها ومنها الإعراض عن حكم الله تعالى .

وفي الجزئيّة الكريمة الأخيرة : ﴿ وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ كثيراً من النّاس لفاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم غير راضين عن حكم الله تعالى وحكم رسوله الكريم ﷺ وذلك غرار أهل الإنجيل .

أَفَحُكْمَ

الْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

بيّنت الآيات الكريمات أنّ من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وأولئك هم الظّالمون وذلك في حقّ اليهود أساساً ، وبيّنت أنّ من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وذلك في حقّ النّصارى أساساً ، وبيّنت أنّ كثيراً من النّاس فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم لأنّهم لايرضون بحكم المصطفى ﷺ وهو حكم الله تعالى الّذي أوحى به قرآناً كريماً أو سنّةً مطهّرة .

وهذه الآية الكريمة تسأل في أسلوب الإنكار : أفحكم الجاهليّة يبغون ؟ أيبتغى

أولئك الصّادّون المعرضون عن حكم الله تعالى وحكم رسوله الكريم حكم الجاهليّة الجهلاء ؟ إنّ من يبتغي حكم الجاهلية هم الكافرون والظّالمون والفاسقون أمّا المؤمنون فلا .

والجزئيّة الكريمة التّالية تخصّ أولئك المؤمنين المتّقين : ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون ﴾ ومعنى هذا الاستفهام التّقريري لا أحد أحسنُ من الله سبحانه وتعالى حكماً لقومٍ يوقنون ، يؤمنون بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ نبيّاً وبالقرآن الكريم دستوراً ، ويوقنون بأنّ الله سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين وهو الخبير بمصالح العباد ومنافعهم ، العليم بما توسوس به كلّ نفس وبداء كلّ نفسٍ وعلاجها النّاجع جلّ وعلا لا ربّ غيره ولا معبود بحقّ سواه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾

الآيات ٥١-٥٦

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

تنهي الآية الكريمة الّذين آمنوا عن اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء يوالونهم ويودّونهم . وتبيّن الآية الكريمة على الفور الحكمة من النّهي : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ إنّ اليهود والنّصارى بعضهم أولياء بعض لاتّحادهم في الكفر . وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يتولّى من المسلمين اليهود والنّصارى فإنّه منهم ، كما تقرّر أن الله سبحانه وتعالى لايهدي القوم الظّالمين الّذين يتولّون اليهود والنّصارى على حساب إخوانهم في الدّين المسلمين لله رب العالمين .

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

سبب النّزول :

المشهور أنّ الآية الكريمة والآيات الكريمات التّاليات حتّى قوله تعالى[1]: ﴿ ومن يتولّ الله ورسوله والّذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون ﴾ نزلت في عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول شيخ المنافقين الّذي اعتبر يهود بني قينقاع حلفاء الخزرج في الجاهليّة أولياءه في الإسلام بدلاً من المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ . ويهود بني قينقاع حلفاء الخزرج في الجاهليّة أولى الجماعات اليهوديّة الّتي نقضت عهدها مع النّبيّ ﷺ وكان ذلك بعد غزوة بدر ، وأعلنت عداوتها للنّبيّ ﷺ والمسلمين وقالت له ﷺ فيما قالت[2] « يا محمّد إنّك ترى أنّا قومك (الّذين هزمتهم في بدر) لايغرّنك أنّك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصةً

(١) الآية ٥٦ .

(٢) السّيرة النّبويّة ٢ /٤٧ .

إنّا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن النّاس » ثمّ إنّهم حاولوا الاعتداء على شرف امرأةٍ مسلمةٍ في سوقهم فصاحت بالمسلمين فقتل أحد المسلمين الصائغ اليهوديّ الّذي خدش عرض المسلمة ، ونشبت معركة بين المسلمين واليهود ، وحاصرهم ﷺ خمس عشرة ليلةً حتّى نزلوا على حكمه . فقام إليه عبدالله بن أبيّ ابن سلول حين أمكنه الله منهم فقال : يامحمّد أحسن في مواليّ وكانوا حلفاء الخزرج . قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال : يامحمّد أحسن في مواليّ . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أرسلني ، وغضب رسول الله ﷺ حتّى رأوا لوجهه ظللاً ثمّ قال : ويحك أرسلني . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ . أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداةٍ واحدة ، إنّي والله امرؤٌ أخشى الدّوائر . قال فقال رسول الله ﷺ هم لك . وفي الوقت ذاته تبرّأ من حلف بني قينقاع عبادة بن الصّامت الخزرجي رضي الله تعالى عنه . وفي هذه القصّة نزلت الآيات الكريمات من سورة المائدة[1] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وكلّ مسلمٍ وراء ذلك تبعٌ له عليه الصّلاة والسّلام ، بأنّه يرى الّذين في قلوبهم مرض ، أي ضعف اعتقاد وهم المنافقون ، يسارعون فيهم ويبادرون إلى موالاتهم ويقولون معتذرين عن المسارعة في موالاة اليهود ومن لفّ لفّهم من الكافرين عموماً بأنّا نخشى أن تصيبنا دائرة ونخاف أن يدور علينا الدّهر فيغلب المشركون المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فتكون لنا أيادٍ عند اليهود والنّصارى فتنفعنا . والمعروف أنّ هذه المعاني هي الّتي لفظت بها ألسنة المنافقين يوم أحد . فعسى الله تعالى أن يأتي بالفتح والظفر على المشركين وعلى اليهود وسواهم ، أو يأتي بأمرٍ من عنده بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم أو بضرب الجزية على اليهود والنّصارى فيصبح المنافقون على ما أسرّوا في أنفسهم من الشّكّ وموالاة الكفّار نادمين حيث لاينفع النّدم .

---

(١) السّيرة النّبويّة ٢ /٤٨ ، ٤٩ .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

الآية الكريمة تأخذ بسببٍ من مثل هاتين الآيتين الكريمتين من سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[1] : ﴿ أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يُخْرِج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسماهم ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ إنّ المؤمنين الّذين بيّن الله سبحانه وتعالى لهم المنافقين وفضحهم عن طريق الوحي إلى المصطفى ﷺ بعد أن ظنّ المنافقون أنّ الله سبحانه وتعالى لن يخرج أضغانهم ، إنّ المؤمنين وقد انكشف لهم المنافقون على حقيقتهم يقولون وقد أخذتهم دهشة المفاجأة لفضح الله تعالى المنافقين على رءوس الأشهاد أهؤلاء المنافقون الّذين أقسموا من قبل بالله تعالى جهد أيمانهم واجتهدوا في أداء الأيمان ونمّقوها زاعمين أنّهم مع المؤمنين بينما هم حربٌ لله ورسوله والمؤمنين وقد فضحهم الله تعالى وأخزاهم ؟ أهؤلاء الّذين كشف الله تعالى سوءاتهم هم أولئك الّذين كانوا يعطون المؤمنين من أطراف ألسنتهم حلاوة النّطق وحارّ الأيمان أنّهم مع المؤمنين .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ أولئك المنافقين قد حبطت أعمالهم الّتي ظاهرها الصّلاح لأنّهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى إنّما أرادوا الخداع والتّضليل . وحينما لايبقى للمنافقين سوى أعمالهم السّيئة فإنهم هم الخاسرون في الدّارين الأولى والآخرة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

تخاطب الآية الكريمة الّذين آمنوا بقصد التّهديد والوعيد والتّنبيه إلى غنى الله تعالى عنهم وفقر العباد إلى الله تعالى بأنّ من يرتدّ منهم عن دينه ، دين الحقّ ، دين الإسلام الّذي

---

(١) الآية ٢٩ ، ٣٠ .

لايقبل الله تعالى سواه إلى دين الباطل سواءٌ أكان الدّين سماويّاً نسخه دين الإسلام كاليهوديّة والنّصرانيّة ، أم كان غير سماويّ فهو باطلٌ ابتداءً ، فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يستبدل بهؤلاء المرتدّين غيرهم من المؤمنين ، وسوف يأتي جلّ وعلا بقومٍ يحبّهم جلّ وعزّ ويحبّونه بفعل ما أمرهم به واجتناب ما نهاهم عنه ، أذلّةٍ على المؤمنين عاطفين عليهم متواضعين لهم رحماء بينهم ، أعزّةٍ على الكافرين ، أشدّاء عليهم ، يجاهدون في سبيل الله تعالى وحده لاشريك له ولايخافون في فعل ما أمروا به واجتناب ما نهوا عنه لومة لائمٍ لهم بعكس المنافقين مثلاً الّذين يسارعون في أعداء الله تعالى ويخالفون تعاليم الإسلام في ذلك .

إنّ هذه الصّفات الحميدة الّتي يتحلّى بها الّذين يحبّهم الله تعالى ويحبّونه هي فضل الله تعالى يؤتيه جلّ وعلا من يشاء من عباده والله سبحانه وتعالى واسع الفضل والعطاء ، عليمٌ بمن هو خليقٌ بحبّه وإسباغ فضله عليه ومن هو مدخول الإيمان ضعيف اليقين قد ينتهي به ضعف الإيمان إلى مرحلة الارتداد من الإيمان إلى الكفر والعياذ بالله .

روي الإمام أحمد عن أبي ذرّ قال : أمرني خليلي ﷺ بسبع . أمرني بحبّ المساكين والدّنوّ منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي . وأمرني أن أصل الرّحم وإن أدبرت ، وأمرني ألاّ أسأل أحداً شيئاً . وأمرني أن أقول الحقّ وإن كان مرّاً . وأمرني ألاّ أخاف في الله لومة لائم . وأمرني أن أكثر من قول : لاحول ولا قوة إلاّ بالله فإنّهنّ من كنزٍ تحت العرش[1] .

وروى الإمام أحمد بن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ قال : لا يحقرنّ أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه . فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة النّاس . فيقول : إيّاي أحقّ أن تخاف[2] .

وثبت في الصّحيح : ما ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه ، قالوا : وكيف يذلّ نفسه يارسول الله ؟ قال : يتحمّل من البلاء ما لا يطيق[3] .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تأخذ بسببٍ من قوله تعالى[4] : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٧٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٧٠ .

(٤) سورة محمّد ٣٨ .

قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم ﴾ وقوله تعالى[1] : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد .. وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾

بعد أن نهى السّياق المؤمنين عن اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء ويلحق بهم كلّ كافر تقرّر هذه الآية الكريمة أنّه ليس للمؤمنين ناصرٌ إلاّ الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم ﷺ والمؤمنين . وتنعت الآية الكريمة الّذين آمنوا بأنّهم الّذين يقيمون الصّلاة لأنّها عماد الدّين ويؤتون الزّكاة الّتي فرضها الله سبحانه وتعالى على الأغنياء حقّاً للفقراء . وهذا الموضع الّذي تقرن فيه الزّكاة بالصّلاة دليلاً على أهمّيّة الزّكاة باعتبارها أهمّ مظاهر التّكافل بين المسلمين واحدٌ من بين ما يزيد على الثّمانين موضعاً في القرآن الكريم يجمع فيها بين الصّلاة والزّكاة .

وتأكيدا على أهمّيّة الصّلاة يعود الحديث إلى حالٍ من أحوالها في القول : ﴿ وهم راكعون ﴾ ويصحّ أن نفهم من اختيار الرّكوع بالذّات التّنبيه إلى قيمة الصّلاة جماعةً وإلى أجرها العظيم بالقياس إلى صلاة المفرد ، وقد جاء في سورة آل عمران[2] قوله تعالى : ﴿ يامريم اقنتي لربّك واسجدي واركعي مع الرّاكعين ﴾ ويصحّ أن يقال إنّ الأمر بالسّجود باعتبار أهمّ أحوال المصلّي قرباً من الله تعالى ، وإنّ الأمر بالرّكوع يرادّ به التّنبيه إلى الصّلاة في جماعة ، وكأنّ حال الرّاكعين ممّا يلفت الانتباه إلى هذه الحال الوسط للمصلّين بين القيام والسّجود وهي حال الرّكوع السّابقة للسّجود .

ويصحّ أن يفهم من القول : ﴿ وهم راكعون ﴾ الخشوع في الصّلاة أو صلاة التّطوّع .

---

(١) سورة إبراهيم ١٩ ، ٢٠ .

(٢) الآية ٤٣ .

وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ من يتولاّه الله ورسوله والّذين آمنوا ومن يؤيّده وينصره فإنّ النّصر نصيبه والظّفر حليفه . والآية الكريمة تقرّر أنّ حزب الله تعالى هم الغالبون وذلك إثر حصر ولاية المؤمنين في الله تعالى ورسوله الكريم والّذين آمنوا ، وذلك في الآية الكريمة السّابقة .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تعبّر عن المؤمنين بأنّهم حزب الله : ﴿ فإنّ حزب الله هم الغالبون ﴾ ولاتكتفي باسم الضمير فلا يجيء فيها القول : فإنّهم هم الغالبون . وإنّ في التحوّل من اسم الضمير إلى الظّاهر تنويهاً ورفع ذكر ، فكيف إذا كان ثمّة تحوّل إلى وصف أولئك المؤمنين بأرفع الأحوال الّتي ارتقوا إليها وهي كونهم حزب الله تعالى . ومن المعروف أنّ من نصيب حزب الله تعالى النّصر على عدّو الله وعدوّهم دائماً ، وقد نصّت على هذه الحقيقة الآية الكريمة ونصّ عليها مثل قوله تعالى[1] : ﴿ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إنّ حزب الله هم المفلحون ﴾ .

---

(١) سورة المجادلة ٢٢ .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا أولياء

وجزاء أهل الكتاب بعملهم

الآيات ٥٧ - ٦٦

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

هزواً : مهزوءاً بها[1] .

ولعباً : يعتقدون أنّها نوعٌ من اللّعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد كما قال القائل :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السّقيم[2]

تنهي الآية الكريمة الّذين آمنوا أن يتّخذوا الّذين اتّخذوا دينهم ، دين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لعباده ، مهزوءاً به ونوعاً من اللّعب وضرباً من العبث من الّذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، من اليهود والنّصارى وأن يتّخذوا الكفّار المشركين مع الله تعالى سواه أولياء يسرّون إليهم بالمودّة ويستعينون بهم وينصرونهم ، لأنّ الكفر ملّةٌ واحدةٌ ولأنّ الجميع في الحقيقة يتربّصون بالمسلمين الدّوائر . ويلاحظ أنّه سبق وأن نهى السّياق المؤمنين عن اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء وأمرهم باتّخاذ الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين أولياء .

وقد قرىء والكفار بالنّصب والمعنى : ولا تتّخذوا الكفّار أولياء وبالجرّ والمعنى : من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفّار[3] وتأمر الآية الكريمة المؤمنين أن يتّقوا الله تعالى إن كانوا مؤمنين حقّا .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /٧٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١٨٨ .

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

الصّلاة عماد الدّين وهي أحد أركان الإسلام ، والأذان للصّلاة مشروع . وإنّ اليهود والنّصارى والمشركين الّذين يتّخذون دين الإسلام هزواً ولعباً يتخّذون الأذان للصّلاة هزواً ولعباً . وكما نهي المسلمون عن اتّخاذ الّذين يتّخذون دينهم هزواً ولعباً أولياء نهوا عن اتّخاذ الّذين يتّخذون الأذان للصّلاة هزواً ولعباً أولياء . وتبّين الآية الكريمة السّبب في تورّط هؤلاء الحمقى المغفّلين الكافرين في اتّخاذ الأذان للصّلاة هزواً ولعباً ، إنّهم قومٌ لايعقلون ، لايستعملون عقولهم الّتي أنعم الله تعالى بها عليهم استعمالاً صحيحاً ولاينتفعون بها وإلاّ لما كان هذا موقفهم من الصّلاة عماد الدّين وأفضل الأعمال فكأنّهم لاعقول لهم .

ذكر محمّد بن إسحاق بن يسار في السّيرة أنّ رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوسٌ بفناء الكعبة فقال عتّاب بن أسيد لقد أكرم الله أسيداً ألاّ يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنّه محقٌ لاتّبعته . فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو تكلّمت لأخبرت عنّي هذه الحصى . فخرج عليهم النّبيّ ﷺ فقال : لقد علمت الّذي قلتم ثمّ ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتّاب نشهد أنّك رسول الله ما اطّلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك[1] .

وروى الإمام أحمد ومسلم وأهل السّنن الأربعة قصّة أبي مَحْذورة الّذي التقى بالنّبيّ ﷺ قافلاً من حنين وسمع صوت الأذان فأخذ هو وأصحابه وبخاصّة أبو محذورة يصرخون محاكين صوت المؤذن مستهزئين ، فسمعهم النّبيّ ﷺ فدعاهم وسأل عن المستهزىء فأخبروه أنّه أبو محذورة وصدقوا فحبسه ﷺ ثمّ قال له : قُمْ فأذّن ولقّنه النّبيّ ﷺ الأذان وأعطاه صرّة فيها فضّة ، ووضع يده على ناصية أبي محذورة وأمرّها على وجهه وبين ثدييه وكبده حتّى بلغت يد رسول الله ﷺ سرّة أبي محذورة ثمّ قال رسول الله ﷺ : بارك الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٧٢ .

فيك وبارك عليك فتحوّل كرهه للإسلام وللرّسول ﷺ حبّاً وقال : يارسول الله مرني بالتّأذين بمكّة فقال : قد أمرتك به . واسم أبي محذورة سَمُرة بن مِعْير بن لُوذان ، وهو أحد مؤذّني النّبيّ ﷺ الأربعة وامتدّت أيّامه رضي الله عنه وأرضاه .

وهكذا يتبيّن طريقةٌ من طرائق معالجة النّبيّ ﷺ لأمراض القلوب[1] .

وجاء في القاموس[2] : « وأبو محذورة أوس أو سَمُرة بن مِعْير صحابي » .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾

قل يا أهل الكتاب : قل يا محمّد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى[3] .

هل تنقمون منّا : هل تكرهون منّا أو تجدون علينا حتّى تستهزءوا بديننا إذ أنتم ، إذا نادينا إلى الصّلاة اتّخذتم نداءنا ذلك هزواً ولعباً[4] أي هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلاّ هذا ؟ وهذا ليس بعيبٍ ولامذمّة ، فيكون الاستثناء منقطعاً كما في قوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ وكقوله : ﴿ ومانقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾[5] .

وأنّ أكثركم فاسقون : أي وآمنّا بأنّ أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطّريق المستقيم[6] .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنّصارى الّذين يتخذون دين الإسلام هزواً ولعباً والّذين يتّخذون نداء المسلمين للصّلاة هزواً ولعباً بسبب قلّة عقولهم هل تكرهون منا يا أهل الكتاب وتجدون علينا نحن المسلمين وهل لكم أيّها اليهود والنّصارى من مطعنٍ علينا أو عيبٍ إلاّ أن آمنّا بالله تعالى الواحد الأحد الفرد

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ /٧٢ ، ٧٣ .

(٢) « عير » .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١٨٨ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١٨٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢ /٧٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢ /٧٣ .

الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وآمنّا بما أنزل علينا من قرآنٍ مجيدٍ أوحى الله تعالى به إلى محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، وآمنّا بما أنزل الله تعالى من كتبٍ سماويّة سابقة وفي مقدّمتها التّوراة والإنجيل ، وآمنا أنّ أكثركم فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم صراط الّذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الإسلام واتّباع خاتم الأنبياء والمرسلين خير الأنام .

إنّ الّذي تنقمون منّا وتكرهون يستحقّ أن ينال رضاكم وحبّكم ولكنّكم قومٌ لاتعقلون ولهذا أنتم قومٌ فاسقون تتّبعون السّبل المتفرّقة وتهجرون طريق الحقّ والصّراط المستقيم .

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

قل هل أنبّئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله : هل أخبركم بشرٍّ جزاءً عند الله يوم القيامة ممّا تظّنونه بنا ؟ وهم أنتم الّذين هم متّصفون بهذه الصّفات[1] والمثوبة : الثّواب . مثوبة الخير ومثوبة الشّرّ[2] .

من لعنه الله : أبعده من رحمته[3] .

وغضب عليه : غضباً لايرضى بعده أبداً[4] .

وعبد الطّاغوت : الشّيطان بطاعته[5] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتأمره على غرار الأمر في الآية الكريمة السّابقة بأن يقول لأهل الكتاب ، اليهود هنا بخاصّة ، هل أنبّئكم يا أهل الكتاب بشرٍّ من ذلك الّذي

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٧٣ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١٨٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٧٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢ /٧٣ .

(٥) الجلالين .

ظننتموه بنا ونقمتم علينا من أجله وهل أخبركم بشرٍّ من ذلك جزاءً عند الله تعالى يوم القيامة ؟ إنّك أنتم أيّها اليهود يامن لعنكم الله تعالى وأبعدكم من رحمته وغضب عليكم غضباً لايرضى بعده أبداً ، ويا من جعل الله تعالى منهم القردة والخنازير بأن مسخهم قردة حينما اعتدى أهل قرية أيلة المطلّة على بحر القُلْزُم (الأحمر) في السّبت بأن احتالوا على الحيتان الّتي تأتيهم يوم سبتهم شرّعاً فحبسوها كي يصطادوها يوم الأحد ، وبأن مسخهم قردةً وخنازير وبخاصّة حينما أصرّوا على كفرهم بعد أن استجاب الله سبحانه وتعالى دعوة عيسى عليه السلام بإنزال المائدة كما أن اليهود عبدوا الطّاغوت وأطاعوا الشّيطان الرّجيم .

إنّ بني إسرائيل الّذين تلك صفاتهم هم شرٌّ مثوبةً عند الله تعالى وجزاءً ، وشرٌّ مكاناً ومستقرّا ، وأضلّ عن سواء السّبيل ووسط الطّريق ، الصّراط المستقيم .

جاء في حديث : أنزلت المائدة من السّماء خبزاً ولحماً فأمروا ألاّ يخونوا ولا يدّخروا لغد فخانوا وادّخروا فمسخوا قردة وخنازير[1] عن عبدالله بن عمر أنّ أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة ثلاثة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون[2] .

وقد جاء في سورة الأعراف[3] عن المعتدين في السّبت قوله تعالى : ﴿ فلمّا عتوا عمّا نُهوُا عنه قلنا لهم كونوا قِرَدةً خاسئين ﴾ .

وعن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي ممّا مسخ الله تعالى فقال : إنّ الله لم يهلك قوماً أو قال : لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً وإنّ القردة والخنازير كانت قبل ذلك . وقد روى الحديث مسلم وأحمد[4] .

---

(١) الجلالين وانظر تفسير ابن كثير ٢ /١١٦ و١١٩ ورأي ابن كثير في أحاديث المائدة .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ /١١٦ .

(٣) الآية ١٦٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢ /٧٣ ، ٧٤ .

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾

تحذّر الآية الكريمة المؤمنين من منافقي أهل الكتاب الّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فتقرّر أنّ أهل الكتاب المعاصرين للمصطفى ﷺ ونزول القرآن الكريم إذا جاءوا المؤمنين ووصلوا إليهم وخالطوهم واجتمعوا بالمؤمنين في مجالس الإيمان والعلم قالوا آمنّا ودخلنا في دين الإسلام واتّبعنا الرّسول ﷺ وصدّقنا القرآن الكريم وبأنّه كلام ربّ العالمين . وتبيّن الآية الكريمة بصريح اللّفظ وتكشف خفايا اليهود وتقرّر أنّهم قد دخلوا مجالس المؤمنين وهم متلبّسون بالكفر مستصحبون له ، وظلّوا على هذه الحال حتّى خرجوا من مجالس المؤمنين . وحال منافقي أهل الكتاب هنا شبيهٌ بحال المنافقين من غيرهم الّذين عنتهم هذه الآية الكريمة من سورة محمّدٍ عليه الصّلاة والسّلام[1] : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا الّذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً . أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم ﴾ وفي التّذييل : ﴿ والله أعلم بما كانوا يكتمون ﴾ تقرّر الآية الكريمة الفاضحة لمنافقي يهود أن الله سبحانه وتعالى الأعلم بما كانوا يكتمون من كفرٍ ومن ظنٍّ أنّ حيلتهم ستجوز على المؤمنين وأنّ الله سبحانه وتعالى لن يفضح اليهود ولن يخرج أضغانهم وقد خاب ظنّهم .

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

العدوان : مجاوزة الحدّ الّذي حدّه الله لهم في كلّ ما حدّه لهم[2] .
وأكلهم السّحت : الرّشوة الّتي يأخذونها من النّاس على الحكم بخلاف حكم الله

---

(١) الآية ١٦ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٢ .

فيهم[1] .

لبئس ما كانوا يعملون : يقول : أقسم لبئس العمل ما كان هؤلاء اليهود يعملون[2] ولبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم[3] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتنبّهه إلى ما يشاهده في الواقع من إسراع يهود في الإثم ومبادرتهم إلى ارتكاب سائر المعاصي والآثام وسيرهم الحثيث نحو الاعتداء على الآخرين وظلمهم وأكل أموالهم بالباطل ، وتهافتهم على أكل السّحت والحصول على المال الحرام من كلّ الطّرق غير المشروعة وبخاصّة الرّشا مقابل الحكم بغير ما أنزل الله تعالى .

وفي التّذييل : ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّه بئس العمل الذّميم عمل القوم من مسارعةٍ في الإثم والعدوان وأكل السّحت ، وهي بعضٌ من الأعمال السّيّئة الّتي يستحق اليهود الذّمّ بسببها .

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

الرّبّانيّون : العلماء العمّال أرباب الولايات عليهم[4] وأئمّتهم المؤمنون وساستهم العلماء بسياستهم[5] .

والأحبار : العلماء[6] والقواد[7] .

لبئس ما كانوا يصنعون : أقسم لبئس الصّنيع ما كان يصنع هؤلاء[8] والصّنع إجادة الفعل ، فكلّ صنع فعلٌ وليس كلّ فِعْلٍ صُنْعاً ، ولا يُنْسَبُ إلى الحيوانات والجمادات كما يُنْسَب إليها الفعل[9] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢ /٧٤ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢ /٧٤ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٢ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢ /٧٤ ، وتفسير الطّبريّ ٦ /١٩٢ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٢ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٣ .
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهاني ٢٨٦ .

الآية الكريمة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وتبيين مسئوليّة أهل الحلّ والعقد تجاه الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر اللّذين يعتبران الدّليل الأكيد على أهليّة الأمّة للسّيادة والرّيادة ، والآية الكريمة تبيينٌ ضمنيٌّ للسّبب الّذي من أجله تحوّلت بإرادة الله تعالى السّيادة والرّيادة من بني إسرائيل الّذين خانوا الأمانة إلى أمّة الإسلام الّتي حينما حملت الأمانة وأدّتها خير الأداء أخذت العناية الإلهيّة بيدها وحينما خانت الأمانة خذلتها العناية الإلهيّة وقد جاء خطاباً للمسلمين في هذا الشّأن مثل قوله تعالى[1] : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الرّبّانيّين وهم أهل الحلّ والعقد من اليهود سواءٌ كانوا علماءً أو عمّالاً أرباب الولايات عليهم وعن الأحبار وهم العلماء بخاصّة وتعيب عليهم تخلّيهم عن واجبهم وخيانتهم للأمانة قائلةً : هلاّ ينهى الرّبّانيّون والأحبار اليهود عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت .

وإنّ النّصّ على الصّنع في القول : ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ وقد عرفنا أنّ الصّنع إتقان العمل أو الفعل ، وقد جاء في الآية الكريمة السّابقة القول : ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ يغرينا بالمقارنة بين مطلق الإثم في الآية الكريمة السّابقة وبين النّصّ على قول الإثم في هذه الآية الكريمة التّالية ، وكأنّ اليهود يسارعون إلى كلّ إثم ويلحق بالإثم العدوان ولكنّ إثم القول يحبّرونه ويتقنون صنعه .

وإنّ النّصّ على أكل السّحت في الموضعين يلفت الانتباه إلى حرص علماء اليهود بخاصّةٍ على أكل المال الحرام عن طريق أخذ الرّشا بخاصّة في مقابل العبث بأحكام الله تعالى . وكأنّ هذا النّوع من أكل السّحت يتقدّم في الإثم الأنواع الأخرى من أكل أموال النّاس بالباطل . وفي هذا المعنى جاء في سورة آل عمران[2] قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننه للنّاس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشْتَرَوْا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ .

---

(١) سورة محمّد ٣٨ .

(٢) الآية ١٨٧ .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟
بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ
وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

وقالت اليهود يد الله مغلولة : وقالت اليهود من بني إسرائيل يد الله مغلولة يعنون أنّ خير الله ممسك وعطاءه محبوسٌ عن الاتّساع عليهم[1] عن ابن عبّاس قال : ليس يعنون بذلك أنّ يد الله موثقة ولكنّهم يقولون إنّه بخيلٌ أمسك ما عنده . تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً[2] .

غلّت أيديهم : أمسكت أيديهم عن الخيرات وقبضت عن الانبساط بالعطيّات[3] ولعنوا بما قالوا : وأبعدوا من رحمة الله وفضله بالّذي قالوا من الكفر وافتروا على الله ووصفوه به من الكذب والإفك[4] وهكذا وقع لهم فإنّ عندهم من البخل والحسد والجبن والذّلّة أمرٌ عظيم[5] .

طغياناً : هو المبالغة والمجاوزة للحدّ في الأشياء[6] والغلوّ في إنكار ما قد علموا صحّته من نبوّة محمّد ﷺ والتّمادي في ذلك[7] .

وكفراً : هو جحودهم عظمة الله ووصفهم إيّاه بغير صفته بأن ينسبوه إلى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٣ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٤ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢ /٧٥ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢ /٧٥ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٥ .

البخل[1] .

والبغضاء: البغض نِفار النّفس عن الشّيء الّذي ترغب عنه وهو ضدّ الحبّ فإنّ الحبّ انجذاب النّفس إلى الشّيء الّذي ترغب فيه[2] .

حثّت الآية الكريمة السّابقة الأحبار والرّهبان على نهي بني إسرائيل عن قول الإثم وأكل السّحت ، أي عن قولٍ وفعل . وإنّ الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تتعرّض لمظهرٍ من أسوأ مظاهر سوء القول ، كما أنّ الآية الكريمة التّالية ذات علاقة بمظهرٍ من مظاهر سوء الفعل . فمع هذه الآية الكريمة المتعلّقة بسوء القول .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ اليهود عليهم لعائن الله تعالى المتتابعة إلى يوم القيامة يقولون : كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ، يقولون : يد الله مغلولة ، بمعنى أنّ ربّ العزّة يمسك عطاءه عنهم ويحبس خيره أن يصلهم . ومن البيّن أنّنا بصدد مظهرٍ من مظاهر سوء القول الّتي عرف بها بنو إسرائيل وذلك على غرار ما جاء على لسانهم في سورة آل عمران[3] : ﴿ لقد سمع الله قول الّذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء ﴾ وانظر إلى لفظة يد الّتي تجرى على ألسنة هؤلاء الجريئين على الله تعالى وانظر إلى الصّفة ﴿مغلولة﴾ ويبدو شيءٌ من جراءة القوم على الله تعالى حينما نتبيّن استعمال لفظة غُلّ في اللّغة العربيّة والصّفة الخاصّة بهذا النّوع من القيود . إنّ الغُلّ هو النّوع من القيود الّذي ينفرد بجمعه بين اليدين والعنق وشدّه اليدين إلى العنق شدّاً بحيث تتعذّر حركة اليدين ، وإنّ لفظة غلّ حينما تستعمل تعني اليد والعنق والجمع بينهما معاً حتىّ في حال عدم ذكر اليد أو العنق بصريح اللّفظ لأنّ الغلّ لايسمّى غلاًّ حتىّ يغلّ اليدين إلى العنق . ومن المواطن الّتي تمّ فيها الجمع بين الأغلال صراحةً والأيدي ضمناً قوله تعالى في سورة يس[4] : ﴿ إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمحون ﴾ أي فالأيدي إلى الأذقان ، وقوله تعالى في سورة سبأ[5] : ﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الّذين كفروا ﴾ وقوله تعالى في سورة

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦ /١٩٥ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ٥٥ .

(٣) الآية ١٨١ .

(٤) الآية ٨ .

(٥) الآية ٣٣ .

غافر[1] : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسّلاسلُ يُسْحَبون في الحميم ثمّ في النّار يُسْجرون ﴾ والمعنى إذ الأغلال في أعناقهم وأيديهم ، والسّلاسل في أرجلهم .

وقد جاء على ألسنة اليهود لفظ اليد في حقّ الذّات العليّة تعبيراً عن البخل لعنهم الله وهذا التّعبير يذكّرنا بالنّهي البديع عن البخل في الآية الكريمة من سورة الإسراء الّتي تجمع بين اليد والعنق بواسطة الغلّ . قال تعالى[2] : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسورا ﴾ .

إنّه يجيء في الآية الكريمة ردّاً على جراءة اليهود ووقاحتهم القول : ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ فمن باب مراعاة النّظير يجيء القول : ﴿ غلّت أيديهم ﴾ والمعنى غلّت أيديهم عن العطيّات وقيّدت بالبخل ، والمعروف أنّ القوم أشدّ خلق الله تعالى بخلاً وشحّاً ، ذلاً وجبنا . ووراء مراعاة النّظير أو المشاكلة الّتي حقّت عليهم ولحقت بهم يجيء القول : ﴿ولعنوا بما قالوا﴾ والمعنى ولعنهم الله بأن طردهم من رحمته بسبب قولهم هذا .

وردّاً على وقاحتهم وجراءتهم على الله تعالى يجيء القول : ﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ والمعروف أنّ ﴿بل﴾ تفيد الإضراب عن الكلام السّابق ، وكلام اليهود السّابق هراء ينبغي السّكوت عنه ، وهذا هو البديل الصّحيح : ﴿ يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى لاراد لفضله وهو مالك الملك ذو الجلال والإكرام يعطي من يشاء ويحرم من يشاء ، ولايُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون .

وتقرّر الآية الكريمة في هذه الجزئيّة : ﴿ وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً ﴾ أنّ ما ينزل إلى محمّد بن عبدالله ﷺ من قرآنٍ كريم يزيد كثيراً من اليهود طغياناً وكفراً ، عدواناً وبغياً ، عناداً وجحوداً ، وذلك بسبب بغضهم الشّديد للقرآن الكريم ، وبسبب كشف القرآن الكريم بعض ما حرص اليهود على إخفائه وكذلك النّصارى ، وسبق أن جاء في هذه السّورة الكريمة قوله تعالى[3] : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ .

وهذا المعنى يفيد أنّ الآية الكريمة أخذت تشمل كلاً من اليهود والنّصارى ، وهذا

---

(١) الآية ٧١ ، ٧٢ .

(٢) سورة الإسراء ٢٩ .

(٣) سورة المائدة ١٥ .

المعنى مسعفٌ لنا على فهم الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ إنّ البغضاء أشدّ من العداوة ، وقد ألقاهما الله سبحانه وتعالى في قلوب اليهود للنّصارى ، وفي قلوب النّصارى لليهود ، وفي قلوب طوائف كلٍّ من اليهود والنصارى ، وهذا المعنى يذكّرنا بمثل قوله تعالى في سورة البقرة[1] : ﴿ وقالت اليهود ليست النّصارى على شيءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شيءٍ ﴾ والمعنى أنّ كلاً من الفريقين ليس على شيءٍ يعتدّ به من أمر الدّين في نظر الفريق الآخر . كما يذكّرنا بمثل قوله تعالى[2] : ﴿ ولئن أتيت الّذين أوتوا الكتاب بكلّ آيةٍ ما تبعوا قبلتك ،وما أنت بتابعٍ قبلتهم وما بَعْضُهُمْ بتابعٍ قبلة بعض ﴾ .

وهذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ تبيّن أنّ أهل الكتاب كلّما أوقدوا ناراً للحرب ضدّ المصطفى ﷺ وضدّ المسلمين خلال العصور أطفأها الله تعالى . والمعروف أنّ ﴿كلّما﴾ تفيد الاستمرار ، فأهل الكتاب مجتهدون في إشعال الحروب المتتابعة بين المسلمين وضدّ المسلمين ولكنّ الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد ، بدليل مدّ الاسلام الزّاحف دائماً بفضل الله تعالى على الرّغم من مكر أهل الكتاب وغير أهل الكتاب الّذي تزول منه الجبال .

وحينما يكون ثمّة اتّفاقٌ بين أهل الكتاب فإنّه اتّفاقٌ ضدّ الإسلام والمسلمين لأنّ الكفر ملّةٌ واحدة يستوى في ذلك أهل الكتاب وغيرهم .

ووراء إيقاد نيران الحرب ضدّ المسلمين وبين المسلمين هم يسعون في الأرض فساداً : ﴿ ويسعون في الأرض فساداً ﴾ ويشمل الفساد كلّ ما يشنّه أعداء الإسلام من أنواع الحروب الّتي تستهدف أخلاق المسلمين ومثلهم وقيمهم وشخصيتهم ودينهم . وتقرّر الآية الكريمة في التذّييل : ﴿ والله لايحبّ المفسدين ﴾ أنّ الله سبحانه وتعالى يبغض المفسدين ولايهدي كيد الخائنين .

---

(١) الآية ١١٣ .

(٢) سورة البقرة ١٤٥ .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد عنيت في المقام الأوّل بما يجرى على ألسنة بني إسرائيل من قول الإثم ، فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية والّتي تليها تعنيان في المقام الأوّل بالفعل الّذي ترشدان إلى صحيحه وتدعوان إلى هجر سيّئه . وهذه الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ أهل الكتاب من اليهود والنّصارى لو أنّهم آمنوا بالله ربّاً وبما أنزل على عبده محمّد ﷺ وبما أنزل من قبل على كلٍّ من موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام من توراةٍ وإنجيل وفي كلٍّ منهما نعت محمّد بن عبدالله ﷺ وأمرٌ باتّباعه ، ولو أنّهم اتّقوا الله تعالى فيما يقولون ويفعلون واتّقوا عذاب الجحيم بفعل الأوامر واجتناب النّواهي لكفّر الله سبحانه وتعالى عنهم سيئاتهم السّالفة وغفر لهم ذنوبهم الآنفة ولأدخلهم جلّ وعلا جنّات النّعيم الّتي فيها ما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

الآية الكريمة تقرّر أنّ أهل الكتاب من اليهود والنّصارى لو أنّهم أقاموا التّوراة الّتي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل الّذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام ، وفي كلٍّ منهما النّصّ على نبوّة محمّد بن عبدالله ﷺ ، ولو أنّهم أقاموا ما أنزل إليهم من ربّهم من قرآن مجيد أوحى الله تعالى به إلى محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . ولو أنّ أهل الكتاب ترجموا إلى عملٍ تعاليم كلٍّ من التّوراة والإنجيل وفي كلٍّ منهما الأمر باتّباع خاتم الأنبياء والمرسلين ، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة آل

عمران[1] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصْرِي قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين . فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ والميثاق المأخوذ من النّبيّين باتّباع محمّد بن عبدالله ﷺ مأخوذٌ بطريق الأولى والأحرى من أممهم ، ولو أنّ أهل الكتاب ترجموا إلى عملٍ تعاليم كلٍّ من التّوراة والإنجيل واتّبعوا محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ، ولو أنّهم ترجموا إلى عمل تعاليم القرآن الكريم الّذي يهدي إلى الطّريق الّتي هي أحسن بعد أن تحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين وأصبحوا جزءاً لايتجزأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، لأكلوا بفضل الله تعالى من فوقهم ممّا ينزل عليهم من السّماء من بركات ، ولأكلوا بفضل الله تعالى من تحتهم ممّا يخرج من الأرض من تحت أرجلهم من خيرات .

إنّ هذا الفضل العظيم من الله تعالى الّذي أراده لأهل الكتاب والخير العميم لم يرده أهل الكتاب لأنفسهم باستثناء القليل منهم الّذين اتّبعوا الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل . وقد نصّ على هذه الحقيقة الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة : ﴿ منهم أمّةٌ مقتصدةٌ وكثيرٌ منهم ساء مايعملون ﴾ والمعنى أنّ جماعةً قليلةً منهم مقتصدة ومعتدلة أمّا الكثرة الغالبة منهم فإنّهم فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم .

ونستطيع أن نفهم الصّفة مقتصدة في ضوء الّذين تعنيهم الجزئيّة الكريمة . فإن كان المقصود النّظر إلى القوم باعتبار الأصل وكونهم في الأساس يهود ونصارى فإنّا نستطيع أن نفهم الصّفة مقتصدة بأنّها بمعنى معتدلة بمعنى أنّ النّصارى مثلاً لايغالون في عيسى ابن مريم عليه السّلام بمعنى أنّهم يعتقدون أنّه عبدالله ورسوله وليس ابناً له جلّ وعلا ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ﴾ ويبدو أنّ هذا هو المعنى القريب المتبادر إلى الذّهن .

فإذا نظرنا إلى هؤلاء المعتدلين باعتبار ماآلوا إليه مسلمين لله ربّ العالمين ومن أتباع محمّد بن عبدالله ﷺ فإنّ الصّفة ﴿مقتصدة﴾ تنسحب عليهم باعتبارهم مقتصدين معتدلين منصفين يشملهم مثل قوله تعالى في سورة القصص[2] : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب

---

(١) الآية ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الآيات ٥٢ ــ ٥٥ .

من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السّيّئةَ وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لانبتغي الجاهلين ﴾ .

﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك ﴾

وعلى العالمين الاتّباع

الآيات ٦٧ - ٧١

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

حثّت الآية الكريمة السّابقة أهل الكتاب على إقامة التّوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم جلّ وعلا ، ولمّا كانت رسالة الإسلام عالميّةً وشاملةً كلّ عباد الله تعالى وفيهم أهل الكتاب ، فقد كان المقصود بما أنزل الله سبحانه وتعالى إليهم القرآن الكريم المهيمن على الكتاب قبله والنّاسخ لكلٍّ من التّوراة والإنجيل ، فعلى أهل الكتاب أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين مقيمين لتعاليم القرآن الكريم . وهذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تبيّن واجب المصطفى ﷺ تجاه القرآن الكريم . إنّ على المصطفى ﷺ أن يبلّغ كلّ ما أنزل إليه من ربّه جلّ وعلا ، وإن لم يفعل ذلك فما بلّغ رسالة ربّه جلّ وعلا . والمعروف أنّه ﷺ قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لأمّته النّاصح الأمين .

روى البخاري ومسلم والتّرمذيّ والنّسائيّ عن عائشة رضي الله عنه أنّها قالت : من حدّثك (تخاطب مسروقاً) أنّ محمّداً كتم شيئاً ممّا أنزل الله عليه فقد كذب وهو يقول : ﴿ يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليه من ربّك ﴾ الآية[1] . وفي الصّحيحين عنها أيضاً أنّها قالت : لو كان محمّد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن الكريم لكتم هذه الآية : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه ﴾[2] .

ويعد ربّ العزّة عبده ﷺ ووعده الحقّ بأن يعصم المصطفى ﷺ من النّاس . وها هو ذا المصطفى ﷺ يبلّغ الرّسالة ويؤدّي الأمانة ويقود الجيوش ويخوض المعارك ويتعرّض للمحن ويعصمه الله سبحانه وتعالى ويحميه من أذى النّاس . وليست العصمة مقصورةً على ما بعد نزول هذه الآية الكريمة المدنيّة التي تعتبر من أواخر القرآن نزولاً وإنّما العصمة شاملةٌ ما سبقها من فترات وما تخلّلها من مواقف عصيبة وظروفٍ صعبة وملابساتٍ خطيرة .

وفي الجزئيّة الأخيرة : ﴿ إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٧٧ .

سبحانه وتعالى لا يهدي القوم الكافرين ولا يسدّد خطاهم ولا يكتب لهم النّجاح والتّوفيق . يستوي في ذلك أهل الكتاب وسواهم .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

لستم على شيءٍ : من الدّين معتدٍّ به[١] .

وما أنزل إليكم من ربّكم : عن مجاهد : يعني القرآن العظيم[٢] وما جاءكم به محمّد ﷺ من الفرقان فتعلموا بذلك كلّه وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمّد ﷺ وتصديقه وتقرّوا بأنّ ذلك من عند الله فلا تكذّبوا بشيءٍ منه ولا تفرّقوا بين رسل الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض[٣] .

ما أنزل إليك من ربّك : عن ابن عبّاس قال : الفرقان[٤]

طغياناً : تجاوزاً وغلوّاً في التكذيب لك على ما كانوا عليه لك من ذلك قبل نزول الفرقان[٥] .

وكفراً : وجحوداً لنبوّتك[٦] .

فلا تأس : فلا تحزن . يقال أسى فلانٌ على كذا إذا حزن يأسى أسىً[٧] .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٨٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٠ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٠ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٠ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٠ .

(٧) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٠ .

امتداداً لتبليغ محمّد بن عبد الله ﷺ رسالته للعالمين تأمره الآية الكريمة بأن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنّصارى بأنّهم ليسوا على شيءٍ من الدّين معتدٍّ به حتّى يقيموا التّوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام وأن يترجموا تعاليمهما إلى عمل ومن ذلك تصديق خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين واتّباعه وحتّى يقيموا ما أنزل الله إليهم من ربّهم ويترجموا إلى عمل تعاليم القرآن الكريم الّذي أوحى الله تعالى به إلى محمّد بن عبد الله ﷺ ويتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين .

ويفهم من القول : ﴿ وليزيدنّ كثيراً منهم ما أُنزِل إليك من ربّك طغياناً وكفراً ﴾ أنّ قليلاً منهم ترجم تعاليم الكتب السّماويّة الثّلاثة إلى عمل ودخل في دين الإسلام الذي أكمله الله ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا ، أمّا أكثر أهل الكتاب فما زادهم نزول القرآن الكريم تباعاً إلّا طغياناً وغلواً في التّكذيب ، وكفراً وجحوداً لنبوّة خاتم الأنبياء والمرسلين .

وفي هذا القول الأخير من الآية الكريمة : ﴿ فلا تأسَ على القوم الكافرين ﴾ نهيٌ للمصطفى ﷺ عن أن يحزن ويقتل نفسه أسىً وحسرةً لانصراف أهل الكتاب وسواهم عن دعوة الحقّ التي بعثه الله تعالى بها ودعا النّاس إليها . وفي ذكر لفظ الكافرين تنبيهٌ إلى السّبب الذي من أجله رفض القوم دعوة الحقّ ، إنّهم كافرون وكفى ، يكتمون الحقّ ويجحدونه ويعلنون الباطل ويدعون إليه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

الآية الكريمة ذات وجه شبهٍ كبير بالآية الكريمة الثّانية والسّتّين من سورة البقرة ، قال تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنّصارى والصّابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعَمِل صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

ويلاحظ أنّ بين الآيتين الكريمتين اختلافاً طفيفاً في ترتيب الفئات الأربع فإذا

كان الصّابئون تأخروا عن النّصارى في آية البقرة ، ممّا يصحّ أن يفهم معه أنّهم طائفةٌ من النّصارى فإنّهم تقدّموا على النّصارى وأتوا بعد الذين هادوا في آية سورة المائدة ، ممّا يصحّ أن يفهم معه أنّهم طائفةٌ من اليهود . وإذا كان الصّابئون في آية سورة المائدة جاءوا في موضع رفع باعتبار ﴿الصّابئون﴾ جمع مذكّر سالماً عطفاً على منصوب إنّ ، وكان مثل هذا التّميّز في الإعراب دليلاً على حالٍ متميّزة وذلك على غرار مجيء ﴿الصّابرين﴾ في آية الإيمان أو البرّ من سورة البقرة في حالة نصبٍ على الاختصاص وليس في محلّ رفعٍ عطفاً على المرفوع قبله ، وعلى غرار مجيء المقيمين الصّلاة في الآية الكريمة الثّانية والسّتّين بعد المائة من سورة النّساء في حالة نصبٍ على الاختصاص كذلك وليس في محلّ رفعٍ عطفاً على المرفوع قبله ، فهل في الإمكان أن نفهم أنّ مجيء ﴿الصّابئون﴾ في آية سورة المائدة متميّزة دليلٌ على تميّز القوم عن الذين أهمل ذكرهم في الآية الكريمة بأنّهم استحقّوا أن ينوّه بذكرهم بأنّهم موحّدون لله تعالى فهم على غرار اليهود والنّصارى قبل أن يتسرّب إلى اليهوديّة والنّصرانيّة ما عكّر صفوهما في هذا المجال ؟ ربما صحّ مثل هذا الاستفهام . والله تعالى أعلم .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الذين آمنوا من أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ ، ويلاحظ تقديم أتباع خاتم الأنبياء والمرسلين في الذّكر تنويهاً بشأنهم وأنّ الذين هادوا ، أتباع موسى عليه السّلام ، والصّابئون ، وهم فرقةٌ من اليهود أو النّصارى ، وأنّ النّصارى ، أتباع عيسى عليه السّلام ، من آمن من هؤلاء بالله تعالى ربّاً وباليوم الآخر وعمل صالحاً استعداداً لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، وإنّما يكون كلّ ذلك وفق ما جاء به محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين والنّاسخ دينه سائر الأديان ، فلا خوفٌ على هؤلاء جميعاً فيما يستقبلون من موتٍ وبعثٍ وحسابٍ وجزاء ، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم في الدّنيا من مالٍ وأهلٍ وخلّان وجاهٍ وسلطان ، لأنّ الآخرة في حقّ هؤلاء المسلمين لله ربّ العالمين خيرٌ من الأولى . ويوم القيامة يوفّيهم ربّهم أجورهم فلا ظلم بحذف حسنة ولا بإضافة سيّئة .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا
لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

الآية الكريمة بمثابة التّفسير لإعراض بني إسرائيل عن دعوة الحقّ التي جاء بها محمّد ابن عبد الله ﷺ وكون السَّبب هو نقض القوم الميثاق وجراءتهم على الله تعالى وعلى رسله وليس السَّبب هو عدم نصاعة الحجّة وعدم وضوح البرهان . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة قد أخذ ميثاق بني إسرائيل بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وأرسل إليهم رسله الذين عليهم أن يتّبعوهم وأن يأخذوا ما آتوهم به وأن ينتهوا عمّا نهوهم عنه . ولكنّ ديدن بني إسرائيل أنّهم كلّما جاءهم رسولٌ من عند الله تعالى بما لا تهوى أنفسهم الأمّارة بالسّوء فريقاً كذّبوا ، وما أكثر هؤلاء المرسلين الذين كذّبهم بنو إسرائيل وآخرهم محمّد بن عبد الله ﷺ ، وفريقاً يقتلون كزكريّا ويحيى عليهما الصّلاة والسّلام .

والذي يلفت النّظر مجيء الفعل المضارع : ﴿ وفريقاً يقتلون ﴾ عطفاً على جملة الفعل الماضي : ﴿ فريقاً كذّبوا ﴾ وفي ذلك دليلٌ على أنّ الرّغبة في قتل رسل الله تعالى أصيلةٌ في القوم قد مارسها الآباء والأجداد ، وعلى أنّ الرّغبة في قتل الرّسل أصيلةٌ وراسخة في نفوس الذّرّيّة ، وعلى أنّ الذّرّيّة مستعدّةٌ لاقتراف الجريمة ذاتها لو تسنّى لها ذلك ، وقد ثبت حرص بني إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ على قتله عليه الصّلاة والسّلام ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد عصم حبيبه ﷺ من النّاس .

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾

وحسبوا ألّا تكون فتنة : الفتنة البلاء والتّمحيص[1] بمعنى أنّ بني إسرائيل ظنّوا ألّا يكون من الله لهم ابتلاء واختبارٌ بالشّدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون[2] .

ثمّ تاب الله عليهم : التّوب ترك الذّنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار كأن يقول فعلت وأسأت وقد أقلعت ، وهو التّوبة . وهي في الشّرع ترك الذّنب لقبحه والنّدم على ما فَرَط منه والعزيمة على ترك المعاودة ، وتداركُ ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة . فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمُل شرائط التّوبة . وتاب إلى الله تذكّر ما يقتضي الإنابة . وتاب الله عليه ، أي قبل توبته منه[3] والمعنى هنا : « ثمّ تبت عليهم ، يقول : ثمّ هديتهم بلطفٍ منّي لهم حتّى أنابوا ورجعوا عمّا كانوا عليه من معاصيّ وخلاف أمري والعمل بما أكرهه منهم إلى العمل بما أحبّه والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي »[4] .

الآية الكريمة بمثابة التّعليل لجراءة بني إسرائيل على الله تعالى وعلى النّبيّين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ بني إسرائيل في جراءتهم على الله تعالى وعلى رسله ظنّوا ألّا تكون فتنة ، وحسبوا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً ، وسبق إلى رُوعهم أنّ الجرائم التي يرتكبونها لن يؤاخذهم الله تعالى عليها ولن يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ بسببها ، بينما الأمر بخلاف ذلك ، وإنّ من أهمّ مظاهر الفتنة أن أعمى الله سبحانه وتعالى بصائرهم عن إبصار نور الحقّ ، وأن أصمّ آذانهم عن سماع صوت الحقّ سماع قبول .

وإنّ الله سبحانه وتعالى الذي سبقت رحمته غضبه ومغفرته عذابه وقد أناب بنو

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠١ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصبهاني ٧٦ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠١ .

إسرائيل إليه وتضرّعوا بعد أن جاءهم بأسه جلّ وعلا قد قبل توبتهم وعطف عليهم ولطف بهم وهداهم سبله جلّ وعلا . ولكنّ بني إسرائيل ، كثيراً منهم ، انقلبوا على أعقابهم وارتدّوا على أدبارهم ، فعمي ذلك الكثير عن إبصار نور الهداية وأصابه الصّمم عن سماع دعوة الحقّ سماع قبول .

وإنّ في ذكر الكثير تنبيهاً إلى القليل الذي ظلّ تائباً إلى الله تعالى منيباً إليه . وهذا القليل يذكّرنا بمثل قوله تعالى في سورة الأعراف[1] : ﴿ ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾ .

وفي التّذييل : ﴿ والله بصيرٌ بما يعملون ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى بصيرٌ بما يعمل القوم ، محسنهم ومسيئهم ، وسيثيب المحسن يوم القيامة ويعاقب المسيء : ﴿ ولا يظلم ربّك أحداً ﴾[2] .

---

(١) الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الكهف ٤٩ .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾

و ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾

ولعنوا

الآيات ٧٢ - ٨١

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾

أرسل الله سبحانه وتعالى رسله بدين التّوحيد ابتداءً بنوح عليه السّلام وانتهاءً بمحمّدٍ ﷺ ، وقد أكرم الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بالكثير من الرّسل ، وآخرهم عيسى عليه السّلام الذي غلا فيه أتباعه . والآية الكريمة تعرض لأحد مظاهر الغلوّ المقيت فيه عليه الصّلاة والسّلام . والآية الكريمة تقرّر كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم بينما هو عليه السّلام قد جرى على لسانه ابتداءً حينما كان في المهد قوله تعالى[1] : ﴿ إنّي عبد الله ﴾ والآية الكريمة تؤكّد هذا المعنى على لسان السّيّد المسيح عليه الصّلاة والسّلام الذي أمر بني إسرائيل بأن يعبدوا الله ربّه جلّ وعلا وربّهم وحده لا شريك له . كما يقرّر السّيّد المسيح عليه الصّلاة والسّلام أنّه من يشرك بالله تعالى ويرتكب الذّنب الذي لا يغفره الله سبحانه وتعالى مطلقاً وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه فقد حرّم الله تعالى عليه دخول الجنّة ومأواه النّار وبئس القرار .

وفي التّذييل : ﴿ وما للظّالمين من أنصار ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ من يتورّط في هذا الظّلم العظيم وهو الشّرك فليس له من ناصر يدفع عنه عذاب الله تعالى يوم القيامة .

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ
إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

الآية الكريمة تؤكّد معنى الآية الكريمة السّابقة وتؤكّد للمرّة الثّانية صفة الكفر الذي يتّسم به الغلاة من أتباع عيسى عليه السّلام . وإذا كانوا في المرّة الأولى قد كفروا

(١) سورة مريم ٣٠ .

بسبب القول إنّ عيسى عليه السّلام هو الله : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾ فإنّهم في هذه المرّة الأخرى قد كفروا بسبب القول إنّ الله سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة آلهة . أمّا الإلهان الآخران حسب زعمهم فهما عيسى عليه السّلام وأمّه . وهذا المعنى قرّرته السّورة الكريمة في نهايتها فقد جاء في الآية الكريمة السّادسة عشرة بعد المائة قوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلتَ للنّاس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ ، إن كنت قلتُه فقد علمتَه ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علّام الغيوب ﴾ .

وعلى الفور تصحّح الآية الكريمة هذا الخطأ العظيم : ﴿ وما من إلهٍ إلّا إلهٌ واحد ﴾ كما تحذّر من التّمادي في ارتكاب هذا الخطأ العظيم وتنبّه إلى وجوب الإقلاع عن هذا الذّنب الكبير . إنّ هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون إن لم ينتهوا عمّا يقولون من منكر القول وخطيره ، وإن لم يقلعوا عن هذا الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى ، وإن لم يتوبوا إلى ربّهم جلّ وعلا توبةً نصوحاً ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة في ذكرها للكفر تؤكّد السّبب الذي من أجله استحقّ القوم أن يمسّهم العذاب الأليم .

أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

تبيّن الآية الكريمة رحمة الله تعالى التي تسبق غضبه ومغفرته التي تسبق عذابه ولطفه بعباده . إنّ هؤلاء الذين ارتكبوا الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه تحثّهم الآية الكريمة في أسلوب الاستفهام التّبكيتيّ على أن يتوبوا إلى الله تعالى ويستغفروه جلّ وعلا .

وفي التّذييل : ﴿ والله غفورٌ رحيم ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه غفورٌ لعباده ومنهم الذين تابوا من الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى لو مات العبد مرتكباً له ، رحيمٌ بهم حينما يرشدهم إلى الصّراط المستقيم ويقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّات .

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

قد خلت من قبله الرّسل : قد مضت من قبلْه الرّسل[١] .

وأمّه صدّيقة : أي مؤمنةٌ به مصدّقة له وهذا أعلى مقاماتها[٢] فعّيلة من الصّدق[٣] .

كانا يأكلان الطّعام : أي يحتاجان إلى التّغذية به وإلى خروجه منهما فهما عبدان كسائر النّاس وليسا بإلهين[٤] .

ثمّ انظر أنّى يؤفكون : أي يذهبون وبأيّ قولٍ يتمسّكون وإلى أيّ مذهبٍ من الضّلال يذهبون[٥] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ السّيّد المسيح عيسى ابن مريم عليه السّلام ليس إلّا رسولاً من رسل الله تعالى الذين أرسلهم بدين التّوحيد ، وقد خلت من قبله الرّسل ومضت ملبّيةً نداء ربّها وغادرت هذه الحياة الدّنيا وذلك دليلٌ على أنّ الرّسل عبيدٌ لله تعالى جميعاً . كما تبيّن الآية الكريمة أنّ أمّ عيسى عليه السّلام صدّيقة ، مؤمنةٌ به مصدّقةٌ له عليه السّلام فيما جاء به من عند ربّه جلّ وعلا .

ويشترك كلٌّ من عيسى عليه السّلام وأمّه مريم ابنة عمران في أكل الطّعام . وإنّما يكون أكل الطّعام بسبب الحاجة إليه ، وإنّ من أكل طعاماً احتاج إلى أن يتخلّص جسمه من فضلاته في هيئة البول والغائط . وإنّ الحاجة إلى الطّعام والحاجة إلى التخلّص من فضلاته دليلان أكيدان على كون كلٍّ من عيسى وأمّه من جنس البشر وليس أيّ شيءٍ آخر

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٨١ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٨١ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٨٢ .

فهما عبدان لله تعالى خلافاً لما يزعم الغالون .

وفي الجزئيّة الأخيرة تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وإنّ كلّ فردٍ من أمّته عليه الصّلاة والسّلام داخلٌ في هذا الأمر ، بأن ينظر في عجب واستنكار لأولئك الغالين في عيسى عليه السّلام وأمّه ، كيف يبيّن الله سبحانه وتعالى لهم الآيات البيّنات على أنّ عيسى عليه السّلام وأمّه عبدان لله تعالى ثمّ هم إلى مهاوي الرّدى يذهبون مسرعين ، وعن طرق الحيرة والضّلال يبحثون متحمّسين !

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وأمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له في ذلك ، بأن يقول لهؤلاء الغالين في عيسى عليه السّلام وأمّه ، الكافرين من النّصارى وسواهم ، وبأن يسأل في إنكار هؤلاء الذين عطّلوا نعمة العقل : أتعبدون من دون الله سبحانه وتعالى وتشركون مع الله تعالى في العبادة ما لا يملك لكم ضرّاً يجلبه إليكم أو يدفعه عنكم ، ولا نفعاً يوصله إليكم أو يصرفه عنكم .

وتقرّر الآية الكريمة في جزئيّتها الأخيرة أنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو السّميع الذي لا تخفى عليه الأصوات ولا تصعب عليه اللّغات وهو العليم بما يفعله الغالون من استمرارٍ في الغلوّ أو إنابةٍ إلى الله تعالى وبما يفعله كلّ مخلوق ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، وسيجازي كلًّا بما فعل ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟
كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

على غرار الآية الكريمة السّابقة تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وأمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له في ذلك ، بأن يقولوا لأهل الكتاب ، النّصارى بخاصّة ، لا تغلوا في

دينكم غلوّاً غير الحقّ ، ولا تتجاوزوا الحدّ ، ولا تقولوا غير الصّدق ، ولا تتّبعوا أهـواء قومٍ قد ضلّوا من قبل ، وهم الأسلاف الذيـن غلـوا في عيسى عليـه السّلام فزعمـوا أنّـه إلـهٌ أو ابـن الله ، أو هم اليهود الذيـن سبـق لهم أن غلـوا في عزيـر فقالـوا إنّـه ابـن الله . إنّ السّابـقين الضّالّين قد أضلّوا كثيراً من النّاس فتورّطوا مثلهم في الغلوّ في عيسى عليه السّلام ، كما أنّهـم قد ضلّـوا عن سواء السّبيـل وحـادوا عن النّهـج القـويم والصّراط المستـقيم . إنّ عيسى عليـه السّلام هو ابن مريم وهو عبد الله ورسوله وكفى .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الذين كفروا من بني إسرائيل لعنوا على لسان داود نبيّ الله عليه السّلام وعيسى ابن مريم عليه السّلام . عن ابن عبّاس قال : لعنـوا بكـلّ لسان ، لعنـوا على عهد موسى في التّوراة ، ولعنوا على عهد داود في الزّبور ، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل ، ولعنوا على عهد محمّد ﷺ في القرآن[1] .

عن قتـادة قال : لعنهم الله على لسان داود في زمانـه فجعلهـم قردةً خاسئين ، وفي الإنجيل على لسان عيسى فجعلهم خنازير[2] والذين مسخوا قردة أصحـاب أيلـة على نحو ما بيّنت الآية الكريمة السّادسة والسّتّون بعد المائـة من سورة الأعـراف ، قال تعـالى : ﴿ فلمّـا عَتَوْا عمّـا نهوا عنـه قلنـا لهم كونـوا قردةً خاسئين ﴾ والذيـن مسخـوا خنازيـر أصحـاب المائدة[3] .

وإنّما لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل وطُرِدوا من رحمة الله تعـالى بسبب عصيـانهم الله تعالى وبسبب اعتدائهم على خلقه وبخاصّةٍ أنبياء الله تعالى .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٢٠٤/٦ وتفسير ابن كثير ٨٢/٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٢٠٥/٦ .

(٣) الجلالين في تفسير آية المائدة الكريمة .

كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

الآية الكريمة بمثابة التّبيين لمعصية الله تعالى والاعتداء على حرمات الله تعالى وعلى خلقه اللّذين أشارت إليهما الآية الكريمة السّابقة . إنّهم باختصار لا يقومون بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ومعنى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه ﴾ لا ينهي بعضهم بعضاً عن المنكر الذي يرتكبه . وتذمّ الآية الكريمة ما كانوا يفعلونه من منكرٍ وآثامٍ ومعاص .

روى الإمام أحمد أنّ رسول الله ﷺ قال : لمّا وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم : ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وكان رسول الله ﷺ متّكئاً فجلس فقال : لا والذي نفسي بيده حتّى تأطروهم على الحقّ أطراً[1] وفي الحديث الشّريف أمرٌ للمسلمين بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أنّ النّبيّ ﷺ قال : والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثمّ لتدعنّه فلا يستجيب لكم . ورواه التّرمذيّ[2] وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدريّ أنّ النّبيّ ﷺ قال : من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[3] .

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وأمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له في ذلك ، فتقول له عليه الصّلاة والسّلام ترى يا محمّد كثيراً من بني إسرائيل المعاصرين لك يتولّون

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٨٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٨٣ .

الّذين كفروا ويتّخذون من مشركي مكّة وسواهم أولياء يسرّون إليهم بالمودّة وبأنّهم أولياء لهم . يقول الله تعالى ذكره أقسم لبئس الشيء الذي قدّمته لهم أنفسهم في معادهم[1] أمّا هذا الشّيء الذي قدّمته لهم أنفسهم مقابل موالاتهم الكفّار ومعاداتهم المؤمنين فهو سخط الله عليهم إلى يوم معادهم هذا إلى أنّهم يوم القيامة في العذاب خالدون والعياذ بالله . إنّ على العاقل أن يقدّم في هذه الحياة الدّنيا ما يسرّ له يوم القيامة ولكنّ القوم قد أعمى الله سبحانه وتعالى بصائرهم .

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ بني إسرائيل ويلحق بهم من لفّ لفّهم من المنافقين الذين يوالون الكفّار ويعادون المؤمنين لو كانوا يؤمنون بالله تعالى ربّاً حقّ الإيمان ويعبدونه جلّ وعلا وحده لا شريك له حقّ العبادة ، ولو كانوا يؤمنون بالنّبيّ محمّد ﷺ وبأنّه رسول ربّ العالمين إلى النّاس كافّةً ، ولو كانوا يؤمنون بما أنزل إليه ﷺ من قرآنٍ مجيدٍ وآياتٍ بيّنات ويترجمون تعاليم القرآن الكريم إلى عمل ما اتّخذ كافرو بني إسرائيل ومن لحق بهم من المنافقين كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم أولياء من دون المؤمنين . ولكنّ كثيراً من القوم فاسقون منحرفون عن الجادّة خارجون على الصّراط المستقيم ولهذا هم يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ويتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ، وبأنّهم مع المؤمنين في الظّاهر بينما هم مع الكافرين بالباطن لاشتراك الجميع في صفة الكفر ، والكفر ملّةٌ واحدة .

وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين .

صبيحة يوم الثّلاثاء غرّة شهر محرّم ١٤٠٨هـ .

مكّة المكرّمة

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٦/٢٠٦ .

فهرست الموضوعات

الموضـــوع	الآيات	الصّفحا
المقدّمة		٧
أوّلاً : تمام سورة النّساء		٩ — ٥
بين يدي التّفسير		١٧ — ٤
التّفسير		٢٥
«لا يحبّ الله الجهر بالسّوء من القول إلّا من ظُلِم» وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين	١٤٨ — ١٥٢	٢٧
من مظاهر تعنّت كافري أهل الكتاب وعذابهم الأليم وأجر المؤمنين العظيم	١٥٣ — ١٦٢	٣٥
أوحينا إليك بالنّبوّة وأنزلنا إليك القرآن وعقاب الكافرين	١٦٣ — ١٧٠	٥٥
«يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم» ويا أيّها النّاس آمنوا بالله	١٧١ — ١٧٥	٦٧
آية الكلالة	١٧٦	٧٩
ثانياً : سورة المائدة حتّى نهاية الجزء السّادس		٨٧ — ١
بين يدي التّفسير		١٠٥ — ٩
التّفسير		١٣١
«يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» و«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»	١ — ٣	١٣٣
«يسألونك ماذا أُحلّ لهم» وكيفيّة الوضوء والتيمّم	٤ — ٧	١٥٧
«يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله» وثواب المؤمنين وعذاب الكافرين	٨ — ١١	١٧٣
نقض أهل الكتاب الميثاق	١٢ — ١٩	١٧٩
القدس محرّمةٌ على بني إسرائيل	٢٠ — ٢٦	١٩٧
«من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعاً ومن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعاً»	٢٧ — ٣٢	٢١١
جزاء المحاربين لله ورسوله السّاعين في الأرض فساداً	٣٣ — ٤٠	٢٢١
«يا أيّها الرّسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» من المنافقين واليهود والنّصارى	٤١ — ٤٧	٢٣٣
القرآن مهيمنٌ على الكتاب قبله «ومن أحسن من الله حكماً لقومٍ يوقنون»	٤٨ — ٥٠	٢٤٩
«يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء»	٥١ — ٥٦	٢٥٧
يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخذوا الذين اتّخذوا دينكم هزواً ولعباً أولياء وجزاء أهل الكتاب بعملهم	٥٧ — ٦٦	٢٦٥
«يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك» وعلى العالمين الاتّباع	٦٧ — ٧١	٢٨٣
«لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم» «وإنّ الله ثالث ثلاثةٍ» ولعنوا	٧٢ — ٨١	٢٩٣